

الدرس الثامن:

الحجاج في اللسانيات التداولية

لقد تنوعت اتجاهات الدرس الحجاجي في المتون اللغوية العربية والغربية فمنها ما يعود للمنطق ، ومنها ما يعود إلى البلاغة ، ومنها ما يعود للفلسفة و اللغة، و اللافت للانتباه أن الحجاج يرتبط ارتباطا وثيقا بالإقناع كما رأينا في الدروس السابقة ، وذلك بالنظر إلى طبيعة المتلقين بمعنى أن الإخبار في ذاته نوع من الإقناع .وقد يرفض المخاطب فيكون الخطاب حينئذ حجاجيا .فهناك علاقة ضمنية بين الحجاج و الإقناع، إذ أن الحجاج يكون مطية للإقناع.

وفبذلك يعد الحجاج محورا هاما من محاور الدرس التداولي.

-الحجاج في المعاجم العربية:

تدور مادة ح-ج-ج في المعاجم حول معنى القصد و البرهان و الغلبة ،وقد تأتي بمعنى تنازع ، و تخاصم قال الأزهري :الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة،بدليل قوله تعالى " ألم تر إلى حاج إبراهيم في ربه" أي جادله.

أما في الاصطلاح فلا تكاد تختلف آراء اللغويين على أنه مجموع التصورات و المعتقدات الراسخة في ذهن المتكلم يقدمها كأدلة للتأثير على الأذهان على المتلقين ،محاو لا إقناعهم بالأدلة الدامغة، ونشير إلى أن هذه الحجج و البراهين تختلف باختلاف المهارات المعرفية ،والمعتقدات و حالات السامعين النفسية،و يمكن تلخيص أهم التوجهات إلى :

بما يفرض عليها من أطروحات ،أو يزيد في درجة ذلك التسليم.

من خلال النص يفهم أن جل العناصر الأسلوبية منها الشرط،و النفي ،و الاستفهام، و التوكيد هي في حقيقتها عناصر بلاغية وظيفتها الإقناع و الحجاج .

-اتجاه يجعل من اللغة آلية من الآليات التي تؤسس عليها عملية الحجاج ،و يمثل هذا الاتجاه كل من أوستين و سيرل في ما يعرف بنظرية أفعال الكلام ،و هذا ما يؤكد عليه ديكر و معرفا الحجاج على أنه صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب ،و المدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدلالية .

من هنا نستنتج أن اللغة التي تتفرد بمجموعة من الأدوات و الإجراءات هي التي بيدها جل التقنيات الحجاجية لأي خطاب من الشروع في الخطاب إلى نهايته،بحكم إن الحجاج غايته الإقناع و التأثير في السامع.

نسجل هنا نقطة مهمة جدا تتمثل في أن المتخصصين قد اختلفوا في الكيفيات التي تصاغ عليها الحجج و البراهين،فهناك من يري أن الحجاج يظهر في صورة منطقية وفنية ذات بيان

تخرج إلى وظيفة الحجج، و هناك من يذهب إلى أنها تظهر في صورة لسانية، و على الرغم من الاختلاف بين الاتجاهين إلا أنها تصب في مجملها إلى رصد القوانين و القواعد ، و حتى النماذج التي يستطيع بها المتكلم المحاجج التأثير في المخاطبين، و جمهور السامعين.

مصطلح الحجج و مترادفاته:

قد يستعمل المتخصصون إلى جانب الحجج مصطلحا قريبا منه في الدلالة و المضمون ، فقد تجد مصطلح البرهان ملازما لمعنى الحجج، إلا أن هناك فروقا بين المصطلحين فإذا كان الحجج خطاب لساني تداولي يستخلص من مجموعة من عوامل تتمثل في السياق الذي ورد فيه الخطاب مع الاهتمام بالمكان و الموضوع و طريقة الإلقاء، مع التركيز على الهدف المقصود من المتكلم ، و أهم النتائج التي يتوصل إليها مراعين مختلف السلوكيات التي تحدثها التراكم و أثر العبارات ، من هنا فالحجاج ليس خطبا برهانيا منطقيا .

أما مصطلح البرهان فقد ورد مفهومه عند حجة منطقية عقلية تستند على التجارب و الحوادث.

إن البرهان على ما سبق لا يتحدد إلى عن طريق الأدلة العقلية، القاطعة بعيدة عن الشك نلمسها تتجلى في العديد من العلوم التجريبية كالرياضيات انطلاقا من مجموعة فرضيات وصولا إلى نتائج يقينية، و قد نستعين بمعدات مادية تخضع للتجربة كأن نبرهن على أن الماء هو هيدروجين و أكسجين. إن هذه المعطيات لا يمكن أن تتجلى في الخطاب اللغوي فهو بعيد عن هذه المقدمات بحكم تأطيره بالمقام و العناصر اللسانية، فضلا على أن حججه نسبية قد تحقق الغرض و قد تحقق.

بين الحجج و الإقناع:

قد يوظف بعض المتخصصين في حقل الدرس اللساني التداولي مصطلح الإقناع مرادفا للحجاج ولكن هناك بعض الدقائق المعرفية لا بد أن نقف عندها نجملها في أن الإقناع يرتبط ارتباطا وثيقا بالمتلقي فإن كان المتكلم يبلغ المتلقي بخبر لا يعلمه ، فهو يقنعه، أما إذا كان المتلقي ناكرا و رافضا للرسالة الموجهة إليه ، فإن الخطاب ينتقل من الإقناع إلى الحجج، بمعنى أن المتلقي إذا اقتنع بالمقدمات الموجهة إليه، فهو في موقف الاقتناع فحين إذا كان في موقف الإنكار، فهو في موقف المحاجج، أي أن المتلقي هو الذي يحكم على نوع الخطاب لأن قناعته بالرسالة تجعل من الخطاب إقناعا، في حين عندما يرفض الرسالة و ينكرها و يعترض عليها تحول إلى حجاج، و منهم من يذهب إلى أن الحجج و الإقناع متلازمان حيث يحتاج الأول الثاني كما لا يستغني الثاني عن الأول.¹

-محاضرات في اللسانيات التداولية، خديجة بوخشة، ص 1.53

الحجاج ز البلاغة الجديدة

قبل التعرض للحجاج عند بيرلمان و تيتيكا لا بد أن نعود لمظاهر الحجاج في تراثنا العربي حتى نربط تلك الدلالات الموثقة في كتب العربية بالدرس اللساني التداولي عند الغربيين .

إن المتصفح لكتب البلاغة العربية يصل إلى قناعة مفادها أنها تقوم على الحجاج، فكلما كان القول بليغا كلما كان مؤثرا ومقنعا، وإذا استنطقنا المقولات اللغوية عند البلاغيين العرب نلفيهم يجمعون على أن البلاغة فن الإقناع

فهذا بشر بن المعتمر²¹⁰ه يعرف علم البلاغة بقوله:

«أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ويكون ظاهرا مكشوبا وقريبا معروفا، إما عند
□ اصة إن

كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك
وبلاغة

قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك □ أن تفهم العامة معا □ اصة، وتكسوها
الألفاظ

فالبلاغة إذن ما رضىته، الواسطة ال□ لا تلتطف عن الد□ اء ولا □ فو عن الأكفاء فأندت .
البليغ التام

□ اصة من عذب الألفاظ وما فهمته □ اصة، فيكون بذلك اللفظ قادرا على إرضاء □ اصة
من الناس

وإفهام العامة منهم²

أما الجاحظ²⁵⁵ه فقد أشار إلى مظاهر الحجاج عندما تعرض لتعريف البلاغة التي غايتها
استمالة القلوب، و□ الأعناق؛ أي جعلها تنساق وتقاد وتدعن □ ا يقوله □ ا تكلم، إن البلاغة
هي □ بيز وسياسة و ترتيب ورياضة و □ ام الآلة، وإحكام الصنعة، وسهولة □ ا خرج،
وجهارة □ ا نطق، وتكميل □ ا روف، وإقامة الوزن، وإن حاجة □ ا نطق □ ا □ ا لاوة كحاجته
إلى الجزالة، والفخامة، وأن ذلك ما تستمال به القلوب، وتثنى له الأعناق، وتزين به
المعاني.³

□ ا-احظ: البيان والتبيين □ ا: وضع حواشيه : موفق شهاب الدين منشورات □ ا مد علي بيوض، دار الكتب العلمية ب□ اوت لبنان مجلد الأول²
1998، ص99.

□ ا-المرجع السابق، 1/68³

من هنا فدلالة البلاغة تقوم على مجموعة من الوظائف، منها الإمتاع و الإثارة، و كذا الإقناع، و بيان القدرات الجمالية، وهو من صلب الحجاج في الدرس التداولي. وهي الأفكار التي احتوت الفكر البلاغي عند كل من أبي

هلال العسكري 395هـ، و الجرجاني 471هـ في كتابيهما الصناعتين، و أسرار البلاغة، و الزمخشري 528هـ في أساس البلاغة، و القطراني في منهاج البلغاء

من هنا فالبلاغة ترتبط ارتباطا وثيقا بمبحث الحجاج فكما كان القول بليغا كان مؤثرا في السامعين، وهي المحاور التي شكلت البلاغة الجديدة في التراث الغربي عند بيرلمان و تيتيكا.

الحجاج عند بيرلمان:

قبل الحديث عن مشروع البلاغة عند الغربيين نشير إلى أن الأسس التي تبناها هؤلاء اللسانيين تعود إلى مفهوم البلاغة في التراث الغربي أي عند أرسطو التي تهدف إلى الكشف عن طرائق الإقناع في أي موضوع كان⁴، فبلاغة عند اليونانيين هي فن الخطاب، وكيفية التأثير على السامعين.⁵

لقد ظلت البلاغة جينا من الدهر تكرر المشروع البلاغي الحجاجي من خلال الاهتمام بالتركيب، و بمحسناتها اللفظية، وكذا التركيز على المحاور الجمالية فأضح الجمال هو علم البلاغة.

إن هذا التوجه الذي ساد حقبة زمنية طويلة فتح الباب أمام البلاغيين المعاصرين إعادة النظر في مفهوم البلاغة، و إعادة قراءة الموروث، و لرد الاعتبار لموضوع الحجاج، فبدأت بوادر هذا التوجه مجسدة في ثلة من الباحثين في مقدمتهم رولان بارت، و جيرار جنيت، و تودوروف، إلا أن بيرلمان عمق البحث في موضوع الحجاج و أحدث تغييرا معرفيا من خلال مؤلفاته البلاغية من خلال كتابه الموسوم بـ "مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة الذي عالج فيه ثلاث محاور، تناول في المحور الأول أطر الحجاج، أما المحور الثاني، فعالج منطلقات الحجاج، أما المحور الثالث فعالج فيه تقنيات الحجاج.

لقد لقيت جهود بيرلمان و تيتيكا عند المتخصصين ارتياحا واسعا بحيث أنهما أخرجتا الدرس البلاغي الكلاسيكي من النظرة الفلسفية الرياضية إلى البعد الحجاجي يقوم على الآليات المنطقية، وهي أفكار مهمة في الدراسات البلاغية الغربية و ارتقت جهودهما لتساير الفكر اللساني المعاصر، فكانت نظرتهم أن جعلنا من البلاغة علما مستقبليا يسعى إلى تطوير المجتمعات، مع تحليل مختلف الخطابات وذلك بالتسليم بما يعرض عليها من أطروحات

-أرسطو طاليس □ طباعة تر □ة عبد الر □ن بدوي، ص 29. 4
-جورج مولينييه: الأسلوبية، تر □ة بسام بركة □ و □سسة □امعية للدراسات والنشر والتوزيع، ب □وت 1427هـ - 2006م، ط 2، ص 325

تجعل من العقول تذعن لما يطرح، مما يستدعي جملة من المقومات ، و التقنيات البعيدة عن الصرامة الرياضية.

و من المعلوم أن الإجراء الحجاجي يقوم على مجموعة من المرتكزات أساس وهي:-المتكلم- المتلقي-الرسالة، وكل عنصر له دور في عملية الإقناع وذلك بتفاعلها معاً، ونستمد ذلك من خلال ما أورده بيرلمان حين قال:

"بما أن الغاية من الحجاج هي إثارة مستمع ما و استمالاته نحو الأطروحات المراد تركيبها ،أو زيادة التزكية ،وليس استنباط النتائج من بعض المقدمات⁶، أما الرسالة أو الخطاب فقد تتحدد من خلال معرفة العلاقة التي تربط المتكلم بالمتلقي، فالمتكلم يستند إلى مقدمات انطلاقاً من الخلفيات التي يتمتع بها السامع كالمستوى الثقافي ، و المكانة الاجتماعية، و السلوكات النفسية و المعرفية .

مراجع الدرس:

- 1- لسانيات التداولية، خديجة بوخشة،
- 2- اِحظ: البيان والتبيين □ وضع حواشيه : موفق شهاب الدين منشورات □ مد علي بيوض، دار الكتب العلمية ب□ وت لبنان مجلد الأول 1998
- 3- أرسطو طاليس □ طابة تر □ة عبد الر □ن بدوي
- 4- جورج مولينييه: الأسلوبية، تر □ة بسام بركة □ة و □سة □امعية للدراسات والنشر ط2، والتوزيع، ب□ وت 1427 هـ- 2006 م،
- 5- □مد سا □ مد الأم □: مفهوم □ جاج عند ب□ □ان وتطوره □ البلاغة □ عاصرة (مقال) □ لة □ عا □ الفكر الكويت □ لد28، مارس 2000.
- 6- مسعود صحراوي ، ، التداولية عند العلماء والعرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية □ □ا □ا □ اللسا □ العر □، دار الطليعة، ب□ وت، الطبعة الأو □، 2005،

□- □مد سا □ مد الأم □: مفهوم □ جاج عند ب□ □ان وتطوره □ البلاغة □ عاصرة (مقال) □ لة □ عا □ الفكر الكويت □ لد28، العدد 3 يناير، 1⁶

□. مارس 2000، ص 73، نقلاً عن محاضرات في اللسانيات التداولية ،خديجة بوخشة، ص57.